المقدر لهم، ثم هم يطلبون الرجوع إلى مزيد، دون الذين لم يحظوا حيث أميتوا محنةً وابتلاءً، ثم رجعوا لتكملة العدَّة، أو الذين يرجعون وليس لهم تكملة كالراجعين يوم الرجعة من الذين محضوا الكفر محضاً، فإنهم لا يحظون برجوعهم إلا مزيد الكفر، مهما حظى الذين محضوا الإيمان محضاً مزيد الإيمان!.

ثم وترتيب القرآن خلاف تنزيله مما قد يوهن أمر الرباط بين الآيات كما يطلبه الرابطون بينها كما يحبون، ولكن الرباط في ترتيب التأليف حاصل من العليم الحكيم الذي رتّبها بذلك التأليف الأليف، مهما كان عميقاً عريقاً يحتاج إلى تفكير.

فهنا تنديد بالفرار حذر الموت، لامحاً للتنديد بالفرار عن الجهاد حذر القتل، وكلاهما من الفرار عن الموت.

فليست رباطات الآيات باهرة إلا لمن يذّكر فيها، وليست هي قريبة قرب سائر الرباطات في سائر المؤلفات، وإنما هي رباطات وطيدة عريقة قريبة أو غريبة لا بدّ من إمعان النظر فيها.

ثم إن هذا القرآن قد روعي في تأليفه ما يهتدي به المهتدون في كل طائفة طائفة من آياته الكريمة، دون تفصيلات وتبويبات كما في سائر المؤلفات، ولكي يتعرف المتحري عن الحق المرام حقّه في كل نظرة إلى آيات، مستدلاً بها على مجموعة مختصرة غير مختصرة من معارفه، ثم إذا اهتدى وأراد المزيد يزيد في تلاوته مزيداً ومزيداً: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾[1].

أجل ولكل مقال مجال ولكل مجال مقال، لا بدَّ للمفسر أو المستفسر لآي الذكر الحكيم أن يتعرّف إلى مجال كل مقال، وإلى مقال كل مجال،

(١) سورة محمد، الآية: ١٧.

ليعرف الحال كما هي، دون تحميل على القرآن ما يرتئيه من قالٍ، فإنه تفسير للقرآن عن قاله ومجاله، وليس تفسيراً لقاله بمجاله.

ولقد وردت روايات مستفيضة[١] بحق ذلك الموت الجماعي ثم الإحياء من طريق الفريقين، ما لا مجال لردها تفسيراً لهذه الآية، حيث توافقها في معناها ومغزاها، اللّهم إلا ما تحمل جزئيات لا تحملها الآية أو لا تتحملها.

هنا ﴿خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمۡ... حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ﴾ يلمح بأن باعث الموت كان في ديارهم مثل الطاعون كما في مستفيض الأحاديث، ورغم أن حذر الموت والفرار منه طبيعةُ الحال لكلِّ حيٍّ، ومأمور به لكل مكلف، ولكن قد يستثنى واجب الفرار من الموت بما هو واجب كالجهاد، ولذلك أصبح الفرار من الزحف حذر الموت من كبائر المعاصي.

أم بما هو واقع لا ينفعه الفرار - مهما كان هناك علاج آخر أو لم يكن - كمثل الطاعون الماكن في بعض البلاد، فالمبتلى بالطاعون لا يفيده الفرار من بلده إذا أمكن منه الطاعون، فليفر - إذا فر - من نفسه.

وهنا ﴿حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ قد يلمح بأنهم ابتلوا بسبب الموت ومنه الطاعون، ثم خرجوا من ديارهم حذَر الموت بالطاعون، فماذا يفيدهم - إذاً - الخروج من ديارهم.

هذا إذا كان التنديد هنا بخروجهم ومعهم سبب الموت، وقد يعنيه ما يروى عن النبي ﷺ: «إذا وقع الطاعون بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فإن

(١) ففي الاحتجاج عن الصادق عليه السلام في حديث قال عليه السلام أحي الله قوماً خرجوا من أوطانهم هاربين من الطاعون لا يحصى عددهم فأماتهم الله دهراً طويلاً حتى بليت عظامهم وتقطعت أوصالهم وصاروا تراباً فبعث الله في وقت أحب أن يرى خلقه نبياً يقال له حزقيل فدعاهم فاجتمعت أبدانهم ورجعت فيها أرواحهم وقاموا كهيئة يوم ماتوا لا يفتقدون في أعدادهم رجلاً فعاشوا بعد ذلك دهراً طويلاً.

الموت في أعناقكم وإذا كان بأرض فلا تدخلوها فإنه يحرق القلوب»[(١)].

وأما إذا كان التنديد بواقع الخروج حين قُدر الموت بسببه وهم لا يعلمون، وإنما يخرجون خوفة الابتلاء به، فهو - إذاً - بيان أن أجل الله لا يؤخر بالفرار ولا يعجل بالقرار.

ثم الرؤية هنا هي رؤية العلم البصيرة، لا رؤية البصر، حيث القصة سابقة بآلاف من السنين، فإنما هي رؤية بالوحي الصارم، التي هي أثبت من رؤية البصر، فالبصر قد يخطأ ولا يخطأ الوحي، وقد تلمح «إلى» هنا إلى سابق الوقعة دون حاضره وإن بصورته، حيث الرؤية متعدية بنفسها للناظر بالبصر كـ«رأيتهم» ولكن «رأيت إلى» لامحة إلى مرئي بعيد عن البصر قريب إلى البصيرة.

وقد تعني «ألم تر» - بجنب الرسول ﷺ وعلى هامش رسالته - كل من يصح خطابه، وليكونوا نابهين به وإن الله يبعث من في القبور، وقد يبعث قبل الأخرى جماعة في الأولى كيوم الرجعة.

(١) الدر المنثور ١: ٣١٢ - أخرج سيف في الفتوح عن شرحبيل بن حسنة قال قال رسول الله ﷺ: . . .

وفيه أخرج أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي عن عبد الرحمن بن عوف سمعت رسول الله ﷺ يقول في الطاعون: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه».

وفيه عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «لا تفنى أمتي إلا بالطعن والطاعون»، قلت يا رسول الله ﷺ: هذا الطعن قد عرفنا فما الطاعون؟

قال: غدة كغدة البعير، المقيم بها كالشهيد والفار منه كالفار من الزحف.

وفيه عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ: «الفار من الطاعون كالفار من الزحف والصابر فيه كالصابر في الزحف».

أقول: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه» في الحديث الأوّل دليل واجب التحرز عن الموت وواجب الفرار عنه ما أمكن، فالتنديد بفرار من فر ليس إلا فيما لا ينفع الفرار إذا أمكن سبب الموت في الإنسان فماذا يفيده الفرار عن بلده إلى سواه.

فواقع الإحياء هنا دليل واقعه فيهما وبأحرى، حيث السبب فيهما أقوى، ولا سيما في الأخرى، ثم ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ وهي جمع كثرة تلمح أنهم كانوا فوق عشرة آلاف، وقد تكون هي جمع إلف كما هي جمع ألف، فقد كان كلّ إلفاً لحياته، ماسكاً لها بكل حوله وقوته، ثم كلٌّ إلفٌ بصاحبه، فقد اجتمعت فيهم قدرات ثلاث هي من أهم أسباب الفرار من الموت: الكثرة، والألفة بمعنييها، ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، وليعلموا أن وعد الله حق، وأنه غير مغلوب على أمره ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ﴾ وهو قولٌ تكويني إرادة ماضية لإماتتهم، ثم أخرى لإحيائهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾، وهنا ﴿ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ﴾ كـ«موتوا» تدلنا أن إحياءهم لم يكن من نبيٍّ كحزقيل أمن شابه، كخارقة ربانية هي من فعل النبي تدليلاً على نبوته، فإنما هو فعل الله مهما كان قرينة قولة أو إشارة من نبي الله، فلتؤول الروايات القائلة إن حزقيال أم سواه أحياهم.

فقد يكون القصد من إحيائهم ثم إماتتهم إظهار حجة رسالية، بجنب ما قصد فيه إلى تصحيح التصور عن الموت والحياة وأسبابهما الظاهرة، وحقيقتهما المضمرة، وردّ الأمر النهائي فيهما إلى ساحة الربوبية، والمضي في حمل المسؤوليات الحيوية دونما هَلَع لا جزع، فالمقدر كائن لا محالة، والموت والحياة هما بيد الله القادر المتعال.

فلا الحذر من الموت المقدر المحتوم يجدي، ولا الفزع والهلع يزيدان في حياة، أو يردان قضاءً مبرماً.

إنه ليس ليعني حرمة الفرار عن الموت بأسبابه الظاهرية، فإنه واجب كل حيٍّ، وفطري لكل حي، وإنما يعني التنديد بمن يفرون عن الزحف، أو لا

يشاركون في النضال حذر الموت، فحين يفرض التعرض للموت بغية إحياء الكتلة المؤمنة، والحياة الآمنة، فهنا التخلف عنه فراراً عن الموت إدغال وضلال.

كما أن التعرض للموت دونما أمر أهم هو ضلال وإدغال، وحتى المناضل الذي يتهاون في خط النار، ولا يحافظ على نفسه، ولا يناضل بقوة وصلابة هو أيضاً ضال.

وترى أن موتهم الجماعي كان بنفس السبب الذي خرجوا من ديارهم حَذَره، أم بسبب آخر لم يكونوا يحتسبون؟ قد تلمح ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾ إنه كان بغير ذلك السبب، كلمحة ثانية من ﴿ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ إذ لم يكن هناك سبب ظاهر لحياتهم بعد موتهم، ومهما كان ظاهر السبب الذي فروا منه سبباً، ولكن الموت الجماعي بما ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾ يلحّق بسببه الظاهر سبباً ربانياً خفياً يموّتهم ثم يحييهم، مهما كان الله المسبب للثاني هو المسبب للأول.

وقد تلمح ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أنَّ في إحيائهم فضلاً عليهم أن عاشوا ردحاً منتفعين بعيشتهم نابهين، مهما كانت الأكثرية منهم غافلين ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

وقد يحتمل إنهم لم يُروا بموتهم ما يراه الأموات من حقائق الأمور، وإلا فقد بطل التكليف بعد الموت لمكان المشاهدة للحقائق المكلف بها، فلا ابتلاءَ - إذاً - في التكليف!.

كما تلمح أن في إماتتهم الملتحقة بإحياهم فضلاً، تدليلاً على الموت والحياة إنما هما بيده مهما كانت لهما أسباب ظاهرة، ودلالة ثانية هي القصوى: إمكانية الحياة بعد الموت بسناد القدرة، وواقعها يوم القيامة وما أشبه بسناد الفضل، بل والعدل.

وحين يكون الموت بأمر الله، لا حِوَل عنه إلا بحول الله، فلماذا التقاعس عن الجهاد في سبيل الله حذر الموت الذي يكتبه الله في بيوتكم كما يكتبه عند النضال!:

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٤٤﴾:

﴿وَقَٰتِلُواْ . . .﴾ فلا يمنعكم عن القتال في سبيل الله حذر الموت، ولا تقولوا قيلات الجهال جهاراً أو في أنفسكم، كـ﴿وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[1].

﴿وَقَٰتِلُواْ . . . وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ قيلاتكم «عليم» طوياتكم ونياتكم، «قاتلوا» صارمين دونما تزعزع ولا تلكُّع خوفَ الموت وحذَر الموت، فـ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ . . .﴾[2].

وقد تتحمل ﴿وَقَٰتِلُواْ . . .﴾ هنا أن تكون خطاباً لمن أحياهم الله بعد ما أماتهم - بجنب المسلمين - شكراً لما فضّل الله، وإدخالاً لهم في خضم المعارك التي فيها الموت، لكي لا يفروا من الموت حال تحقيقهم لأمر الله.

و﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ليست فحسب ظرفاً للقتال، بل وهي حال للمقاتل: قاتلوا حال كونكم في سبيل الله - في سبيل الله، فما لم يكن المؤمن في سبيل الله في كل حلّ وترحال، لم يكن قتاله في سبيل الله!.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.
(٢) سورة النساء، الآية: ٧٨.

ثم تأكيداً لواجب القتال في سبيل الله أخذ يستقرضهم قرضاً حسناً في صيغة السؤال الاستفهام الاستعلام، استفحاماً للمتثاقلين، سؤال التنديد بهم والتأكيد للمؤمنين:

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾:

وليس القرض هنا وفيما أشبهه يعني - فقط - قرض المال، فإنه من أدناه، بل هو كل قرض من نفس ومال في سبيل الله على أية حال.

فالقرض لغوياً هو القص والقطع، مقابل الفرض وهو الوصل، وعدم ذكر المقرض هنا دليل العموم في فرض القرض كسائر الفرض، فـ﴿قَرۡضًا حَسَنًا﴾ يحلق على كل حسنة[1] فـ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٌ كَرِيمٌ﴾[2] - ﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمۡ﴾[3] - ﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾[4] - ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًاۚ﴾[5] - ﴿لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ

(١) ومما يدل على هذا التحليق ما في نور الثقلين ١: ٢٤٣ عن الكافي متصلاً عن حمران بن أعين عن أبي جعفر عليه السلام قال قلت: فهل للمؤمن فضل على المسلم في شيء من الفضائل والأحكام والحدود وغير ذلك؟ فقال: لا - هما يجريان في ذلك مجرى واحد ولكن للمؤمن فضل على المسلم في أعمالهما وما يتقربان به إلى الله عز وجل، قلت: أليس الله عز وجل يقول: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها، وزعمت أنهم مجتمعون على الصلاة والزكاة والصوم والحج مع المؤمن؟ قال: أليس قد قال الله عز وجل ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥] فالمؤمنون هم الذين يضاعف الله عز وجل حسناتهم لكل حسنة سبعين ضعفاً، فهذا أفضل المؤمن ويزيد الله في حسناته على قدر صحة إيمانه أضعافاً كثيرة ويفعل الله بالمؤمنين ما يشاء من الخير.

(٢) سورة الحديد، الآية: ١١.

(٣) سورة الحديد، الآية: ١٨.

(٤) سورة التغابن، الآية: ١٧.

(٥) سورة المزمل، الآية: ٢٠.

وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ . . .﴾[1].

وهكذا نرى إقراض الله قرضاً حسناً طليقاً دون تعلق خاص بمتعلق خاص في كافة المحاور، قريناً بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بالرسل وتعزيزهم والتصديق بما يصدَّق من شرعة الحق، مما يدل على طليق متعلقاته، من إقراض المتعلقات الآفاقية والأنفسية، مالاً وأولاداً وأهلين، أم حالاً من نفسٍ وعلمٍ وعقلية صادقة.

فالقرض متعدٍ بنفسه، فالإقراض متعدٍ إلى مفعولين، وقد ذكر في هذه الآيات مفعول واحد هو الله ﴿يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ و﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ مفعول مطلق نوعي يبيّن نوعية القرض أنها «حسناً» كما يليق بساحة الربوبية، ثم المفعول الثاني محذوف يعم كل نفس ونفيس يمكن إقراضه الله قرضاً حسناً.

ففي حقل القتال في سبيل الله - كما هنا - يعني القرض الحسن قرض النفس شخصياً، وأنفس الأولاد والأهلين الذين يؤهلون للقتال.

ثم قرض الأموال والتخطيطات الحربية ممن لا يستطيعون حضور خط النار.

فالقرض بالنسبة للأنفس يعم التضحية في سبيل الله قتلاً وموتاً، والكد في سبيل الله صرفاً لطاقات، ثم لما سوى الأنفس من أموال وبنين استئصالاً لها في هذه السبيل، أم صرفاً منها كإقراض المال المعروف بالقرض الحسن، واستعمال الأولاد والأهلين في المصالح الإسلامية دون مقابل.

إذاً فـ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ يعم كل تجافٍ وتنازل عما جعلنا الله فيه مستخلفين دون اختصاص بشيء خاص.

(١) سورة المائدة، الآية: ١٢.

وهكذا يكون المؤمن مقرضاً ربه قرضاً حسناً في كل حقل كما يتطلبه ويناسبه، دونما ضِنَّةٍ، وإنما بكل سماح وحنان، في أمان وغير أمان.

والنقطة الرئيسة في كل إقراض أن يكون قرضاً حسناً، المعبر عنه بسبيل الله، دون سائر السبل المتسارع إليها، المتصارَعُ فيها، كسبيل التفوق على الزملاء وسواهم، أو سبيل تفتح البلاد والتوسعية الخيانية بين العباد، إنما «حسناً - في سبيل الله» كما يرضاه الله، تحليقاً لشرعة الله على بلاده في عباده، لا فرضاً لرئاسة وقيادة لحظوة نفسانية وعلوٍّ في الأرض ف ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾[1].

أجل ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ﴾ الأنفس والأحوال والأموال «ويبصط» لا سواه، فليكن الإقراض لله ﴿قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ في الأخرى، أم وفي الأولى ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[2].

وكما القبض هنا يعني مقابل البصط[3] كذلك القبض الأخذ، إذاً فهو الأخذ قرضاً حسناً وهو الذي يضيق ويوسع.

ولماذا هنا «قرضاً» بعد ﴿يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ دون «اقراضاً»؟ علَّه لأن «قرضاً» يعني الشيء المقروض واتصافه بـ«حسناً» يميزه عن كل مقروض غير حسن مادة ونية وكيفية.

فالذي يقرض الله مالاً أما شابه وهو غير حسن ولا مستحسن وهو غير محبوب، لم يكن بذلك المحبوب: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[4].

(١) سورة القصص، الآية: ٨٣.
(٢) سورة الأعلى، الآية: ١٧.
(٣) تفسير البرهان ١: ٢٣٤ - بسند متصل عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية يعني: يعطي ويمنع.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٩٢.

كما الذي ينفق رياء الناس أو بمنٍّ وأذى، فهكذا الأمر، والحسن عند الله يحلق على كل أبعاد القرض دون إبقاء.

فترى أن الله هنا كيف يعبر عن ذلك الإقراض بـ﴿يُقۡرِضُ ٱللَّهَ﴾ كأنه المحتاج وليس به: استجاشة للضمائر المؤمنة المطمئنة بالله، الواثقة بوعد الله، الراجية ثواب الله: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ﴾ فمضاعفة الله مضاعفة ربانية منقطعة النظير، فضلاً عن أن تكون «كثيرة»، فـ«إن الكثير من الله لا يحصى وليس له منتهى»[(١)].

وهكذا تستجيب لله النفوس المؤمنة، مختجلة من صيغة التعبير، قائلة: «يا نبي الله ألا أرى ربنا يستقرضنا مما أعطانا لأنفسنا وإن لي أرضين إحداهما بالعالية والأخرى بالسافلة وإني قد جعلت خيرهما صدقة، وكان النبي ﷺ يقول: كم من عذق مدلل لأبي الدحداح في الجنة»[(٢)].

فيا خجلتاه من عطف ربنا ولطفه بنا أن يُعيرنا كل ما لدينا من أنفس وأموال وبنين ثم يستقرضنا ما هبانا، ثم يعدنا أضعافاً كثيرة! فما أعطفه بنا وألطفه! وما ألعننا إن لم نجب داعي الله فيما يصلح لنا أنفسنا حيث يصلحنا في أولانا وأخرانا!.

وكما الله هو الذي يستقرضنا ويعدنا أضعافاً كثيرة، كذلك ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُۖ﴾ فليس إقراضه قرضاً حسناً مما هبانا بالذي يَقبض فيما كنا من أنفس

(١) نور الثقلين ١: ٢٤٣ في كتاب معاني الأخبار متصلاً عن أيوب الخزاز قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: لما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ [النَّمل: ٨٩] قال رسول الله ﷺ: اللهم زدني فأنزل الله ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ...﴾ [البَقَرَة: ٢٤٥] فعلم رسول الله ﷺ أن الكثير من الله لا يحصى وليس له منتهى.

(٢) الدر المنثور ١: ٣١٢ - أخرج عبد الرزاق وابن جرير عن زيد بن أسلم قال: لما نزلت هذه الآية جاء أبو الدحداح إلى النبي ﷺ فقال يا نبي الله: ... وفيه عن أبي هريرة عنه ﷺ في القصة فأعطاه النبي ﷺ اليتامى الذين في حجره.